

والجرجاني هنا يوظف ما هو في الأصل عيب لغوي كشفه ابن سينا ومن قبله الخليل بن أحمد في نقص ألفاظ اللغة عما يطلب منها حمله من المعاني. وحينما يوظف الجرجاني هذا النقص توظيفاً جمالياً يجعله معياراً لبلاغة اللغة وميزة في التعبير، فإنه بذلك يؤسس لمفهوم (الاختلاف) الذي به تكون البلاغة من حيث تعدد وجوه الدلالة، ومن حيث اتكاء الدلالة على علاقات السياق الناتج عن تركيب الكلام، وهذا يبعد الدلالة الوضعية أو يؤجلها ويعلق تحققها بتحقيق الجملة واكتمال القول أولاً، من أجل أن تتكشف وجوه المعاني فينتفي بعضها ويثبت آخر. وكل ذلك يكون بعد بلوغ الكلام غايته في التركيب والنطق. وهذا هو (الفكر والروية) اللذان يقتضيهما تفاعل المستقبل للقول الأدبي - كما يقول الجرجاني - ومن ذلك تتحرك النفس فاعلة ومفكرة ومتروية مما يبعث الحياة في النفس وفي النص. ويختم الجرجاني مقولته السابقة قائلاً:

«ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولاً يُعَدُّهُمَا إذا أنت تركته إلى الثاني».

هذه صورة حية يرسمها الجرجاني لتفاعل القارئ مع النص، ولتحرك النص وتحولاته من دلالة إلى أخرى. وهذا هو عنصر مفهوم (الاختلاف) وعلاقة المعنى عضوياً بحالات التركيب اللفظي وتحولاته وتنقلاته من دلالة أولى صريحة إلى دلالة ثانية كانت ضمنية واقتضى أمر كشفها إلى تحرك فكر القارئ ورويته.

ولكن هذا المفهوم وما يمتاز به من وعي نصوصي متطور لم